

الأدب الجزائري بين الحضور والغياب: دراسة إحصائية لقصيدة بكر بن حماد

د: محمد بلحسين
المركز الجامعي تيسمسيلت

إن الاتجاه إلى بناء وترميم الذاكرة الوطنية غدا سمة بارزة لكثير من الباحثين والمثقفين في السنوات الأخيرة، وتعد اللغة وخاصة الأدبية منها أحد أهم القنوات الكافلة للتقاط حفريات تلك الذاكرة، لذا أصبح البحث والتنقيب في الأدب الجزائري مشروعا وطنيا لا عملا نقديا وأديبا فحسب، كما كان في السابق. غير أن هدف الباحث حول الأدب الجزائري لا ينبغي أن يقتصر على المحلية بل لا بد من القفز إلى مرحلة أعلى تكفل له حضورا في المدونة التراثية للأدب العربي كافة، وتلك في حد ذاتها معضلة قبل أن تكون مطمحا، فإن قضية المتن والهامش أو الحضور والغياب تحكمت قديما وحديثا في اصطناعها على ما نراه ظروف مختلفة من التعقيد. يمكن، منها سلطان الذائقة ومركزية الثقافة وتحيزية التصنيف، فلا عجب لما نرى الأستاذ شوقي ضيف وهو مصري يعقد لتاريخ الأدب في مصر مجلدا ضخما، فيما يقارب صفحات ما خصصه لأدب الشام والعراق معا، وليس هذا ثلما في صنيع ضيف بل إنه خدم تراث وطنه وعلى أهل كل قطر أن يبادروا إلى مثل صنيعه في منافسة منتجة لا تراشق عقيم.

من هنا وحينما رأينا ضيفا يتسلط على أدبنا الجزائري القديم من جهات شتى وبصور كثيرة ليس هذا محل بسطها، أردنا أن نسهم بقسط من المباحثة نرجو أن يدفع نحو تغيير هذه الصورة الزائفة ورسم المشهد كما كان ينبغي، فقد عانى أهل المغرب قديما قبل اليوم من التهميش ومن المركزية المشرقية، وما زالت تلك المعاناة تلقي بظلالها على المغاربة حتى اليوم، فابن هانئ الأندلسي له جولة أدبية في الجزائر، غير أننا نتفاجأ فنلقه في تاريخ الأدب المصري لشوقي ضيف⁽¹⁾، على أنه كان معدودا في مدونتنا قديما من أهل المغرب، حتى سمي "مثنى المغرب"⁽²⁾، فيقع ذلك رغم أن جولته في مصر كجولته في الجزائر، وتلك إشكالية أخرى تتعلق بدراسة الأدب القديم وتصنيفه في ضوء القطرية المعاصرة، وابن بسام كتب الذخيرة صارخا بأهل قطره الذين يراهم سببا رئيسا في مجلبة التهميش، فيقول: "إلا أن أهل هذا الأفق، أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعقب تلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتابا محكما، وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة، مرمى القصيدة، ومناخ الرديئة، لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يصرف فيها لسان ولا يد، فغازني منهم ذلك، وأنفثمها هنالك، وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهرري، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بؤوره أهله، وتصبح بحاره ثمادا مضمحلة، مع كثرة أدبائه، ووفور علمائه، وقديما صيعوا العلم وأهله، ويا رب محسن مات إحسانه قبله، وليت شعري! من قصر العلم على بعض الزمان؟! وخص أهل المشرق بالإحسان؟!"⁽³⁾

لذا كانت دراستنا هذه تهدف بطريقة دقيقة إلى قلب معطيات التاريخ حيث أخذنا قصيدة بكر بن حماد التاهرتي في هجاء عمران بن حطان لما أثنى على عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام علي - عليه السلام -، وقمنا برصد حضورها في مدوناتنا التراثية على اختلافها زمانا ومكانا وتخصصا، فخلصنا إلى نتيجة مفادها أن شعرا جزائريا كان حاضرا وبقوة في تراثنا لكن مؤرخ الأدب المعاصر يخطئ بصره هذه الحقيقة التاريخية، فيتغاضى عنها ويهملها.

فإن قال قائل بأن هذه قصيدة واحدة لا يمكن الاكتفاء بها للبرهنة على حضور الأدب الجزائري في التراث، فنقول هذا نموذج له ما يعقبه ويليه مثل القصيدة المنفرجة وغيرها.

لكن قبل الشروع في مقاربتنا الإحصائية نشير إلى خطوات هذه الدراسة التي نستعملها بالكلام عن بكر بن حماد ثم سرد قصيدته وقصيدة عمران بن حطان، ثم نسرد نتيجة الرصد الذي قمنا به مصممين لها بطريقة تصنيفية دقيقة، ومن ثمّ نتقل إلى عقد قراءة في النتيجة.

1- استشهاد الإمام علي بن بكر وعمران

لا ريب أن مقتل الشهيد أمير المؤمنين الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- كان فاجعة في ضمير الأمة الإسلامية، ومصيبة عزی بها كل مسلم أخاه، غير أن الشواذ من المتطرفين لا يخلو منهم زمان ولا مكان، فبالإضافة إلى ابن ملجم العین الذي تولى كبر الجريمة، نجد من يسبل عليه المدائح والثناءات جراء فعلته النكراء، فهذا عمران بن حطان الشاعر الخارجي الشهير يمدح ابن ملجم المُرادي بأبيات أثارت الحمية الإسلامية حيث يقول فيها⁽⁴⁾:

لله دَرُّ المراديّ الذي سفكت ** كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أمسى عشية غشاه بضربته ** مما جناه من الآثام عرياناً
يا ضربة من بقي ما أراد بها ** إلا ليلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره حيناً فأحسبه ** أوفى البرية عند الله ميزاناً
أكرم بقوم بطون الطير قبرهم ** لم يخلطوا دينهم بغيا وعدواناً

كانت هذه الأبيات مثيرة لقلب كل مسلم، فانبرى لها كثير من الشعراء بالمعارضة والنقض، غير أن المناقضة التي كتب لها الشهرة والقبول هي تلك التي قدمها شاعرنا بكر بن حماد التاهرتي، الذي ما زال اسمه مرتبطاً ببلدة من عمق القطر الجزائري تاريخياً وجغرافياً، والحق أن بكرًا كان شاعراً مبرزاً نال ثناء الكبار كأبي تمام وكفاه به⁽⁵⁾، غير أنه ما زال يعاني الهضم في حقه، فشوقي ضيف لما كتب تاريخ الأدب في قسمه الخاص بالجزائر جعل بكرًا من شعراء المهجاء، وكأنه لا يحسن سواه، رغم أنه أي ضيف أشار إلى توزع شعره بين كافة الأغراض المعروفة آنذاك⁽⁶⁾، غير أن شهرته دَوَّتْ في الآفاق حينما انتصر للشهيد علي بن أبي طالب عليه السلام - في قصيدة تذيب الأكباد شهقات وزفراتٍ، وتحرق القلوب كمداً وغيظاً، يقول فيها⁽⁷⁾:

قل لابن ملجم والأقدار غالباً ** هدمت ويلك للإسلام أركاناً
قتلت أفضل من يمشي على قدم ** وأول الناس إسلاماً وإيماناً
وأعلم الناس بالإيمان ثم بما ** سنّ الرسول لنا شرعاً وتبياناً
صهر الرسول ومولاه وناصره ** أضحت مناقبه نورا وبرهاناً
وكان في الحرب سيفاً ماضياً ذكراً ** ليثاً إذا لقي الأقران أقراناً
ذكرت قاتله والدّمع منحدرٌ ** فقلت سبّحان ربّ العرش سبّحاناً
إني لأحسبه ما كان من بشرٍ ** يخشى المعاد ولكن كان شيطاناً
أشقى مُرادٍ إذا عدّت قبائلها ** وأحسر الناس عند الله ميزاناً
كعافر الناقة الأولى التي جلبت ** على ثمودٍ بأرض الحجر خسراناً
قد كان يخبرهم أن سوف يخضبها ** قبل المنيّة أزماناً وأزماناً
فلا عفا الله عنه ما تحمّلـه ** ولا سقى قبر عمران بن حطاناً
لقوله في شقيّ ظلّ مجترماً ** ونال ما ناله ظلماً وعدواناً

يا ضربةً من تقيٍّ ما أراد بهــــــا *** إلا ليلبلغ من ذي العرش رضوانا
بل ضربة من غويٍّ أوردته لظــــى *** فسوف يلقي بها الرّحمن غضبانا
كأنّه لم يرد قصدا بضربته *** إلا ليصلى عذاب الخلد نيرانا

وقد لقي بكر بن حماد الثناء على قصيدته وما زال يلقي، فمن ذلك قول الإمام ابن السّبكي في طبقات الشافعية:
"لقد أحسن وأجاد بكر بن حماد في معارضته فرضي الله عنه وأرضاه"⁽⁸⁾.

2 - رصد حضور قصيدة بكر بن حماد في المدونة التراثية:

تلك هي القصيدة النموذج نرصد هنا كيف حضرت في التراث باختلاف الحقول المعرفية والحقب الزمانية، فنرتب هنا بعض المصادر التي ذكرت القصيدة أو بعضها منها مبينين بعد كل مصدر القرن والحقل الذي كتب فيه، كل ذلك في الجدول أمامك، على أن نوثق القصيدة في المصدر المذكور في الهامش:

المصدر التراثي	المؤلف	الحقل المعرفي	القرن الهجري
مروج الذهب ⁽⁹⁾	المسعودي	التاريخ	القرن الرابع
الاستيعاب ⁽¹⁰⁾	ابن عبد البر	التراجم	القرن الخامس
الحماسة المغربية ⁽¹¹⁾	التادلي	الأدب	القرن السادس
الجوهرة ⁽¹²⁾	البري	السيرة	القرن السادس
الكامل ⁽¹³⁾	ابن الأثير	التاريخ	القرن السابع
نهایة الأرب ⁽¹⁴⁾	النويري	الأدب	القرن الثامن
الوافي بالوفيات ⁽¹⁵⁾	الصفدي	التراجم	القرن الثامن
البداية والنهاية ⁽¹⁶⁾	ابن كثير	التاريخ	القرن الثامن
فتح المغيث ⁽¹⁷⁾	السخاوي	مصطلح الحديث	القرن التاسع
خزانة الأدب ⁽¹⁸⁾	البغدادی	الأدب	القرن الحادي عشر
لوامع الأنوار البهية ⁽¹⁹⁾	السفاري	علم الكلام	القرن الثاني عشر
سمط النجوم العوالي ⁽²⁰⁾	العصامي	التاريخ	القرن الثاني عشر
مطالب أولي النهی ⁽²¹⁾	الرحياني	الفقه	القرن الثالث عشر
أضواء البيان ⁽²²⁾	الشنقيطي	التفسير	القرن الرابع عشر

3- قراءة في عملية الرصد:

بعد أن تم لنا رصد حضور قصيدة بكر بن حماد في تراثنا القديم، يمكن أن نقرأ في الجدول أعلاه عدة إشارات من بينها:

الاستمرار الزمني للقصيدة منذ القرن الرابع وهو القرن الذي تلا وفاة شاعرنا (296هـ) بقليل حيث يذكر المسعودي (ت345هـ) قصيدته في "مروج الذهب"، ثم يتوالى ذكرها في أغلب الحقب التالية حتى العصر الحديث.

كما نلاحظ أن المصادر التي ذكرت القصيدة متنوعة فلم تقتصر على الأدب فحسب، بل منها ما هو في الأدب ومنها ما هو في التاريخ والتراجم والسيرة وعلم الكلام والتفسير والفقه ومصطلح الحديث، ما يعكس الصدى الكبير الذي أحدثته القصيدة وصاحبها، على الرغم من أننا لم نقصد إلى الاستقصاء بل أخذنا عينة عشوائية، حسب المكتبة الإلكترونية المتاحة للبحث، وإلا فمن أراد التقصي أكثر فسيقف على ما يزيد نتائجنا تأكيداً ومزاعمنا توثيقاً.

وهذا الصدى لم يكن غفلاً من الإشارة دائماً إلى القطر الذي ينتمي إليه الشاعر إذ كان مقرونا باسمه فما يذكر إلا وتذكر "تاهرت"، ما يعطي للأدب الجزائري جغرافيته فضلاً عن تاريخيته المشار إليها سالفاً. هذا فضلاً عن أن أكثر تلك المدونات تنتمي للمشرق العربي، ما يعني أن الحضور انتقل إلى مركز الثقافة العربية.

فالحاصل من كل هذا التأكيد مرة بعد أخرى على مظلومية الأدب الجزائري الذي حلق قديما أيما تحليق، وطار صيته في الآفاق، وما قصيدة بكر إلا شاهد من شواهد كثيرة تصلح لمثل عمليتنا الإحصائية، التي نراها فاتحة لإعادة النظر في التصنيفات السابقة ولسياسة "التمتين والتهميش" الجائرة، فههنا دعوة للباحثين من أجل التشمير لقلب الموازين.

قائمة المصادر والمراجع

- 1- ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي/عصر الدول والإمارات/مصر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ص243.
- 2- ينظر مثلا: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1971، ج4 ص424.
- 3- ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس، الطبعة الأولى، 1981، ج1 ص12.
- 4- ينظر: إحسان عباس، شعر الخوارج، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1974، ص147.
- 5- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي/عصر الدول والإمارات/الجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا والسودان، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، ص159.
- 6- ينظر: المرجع نفسه، ص158 إلى 164.
- 7- القصيدة المذكورة في عدة مصادر باختلاف يسير، فينظر مثلا: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1964، ج1 ص288.
- 8- المصدر نفسه، ج1 ص288.
- 9- المسعودي: مروج الذهب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، الطبعة الخامسة، بيروت، 1393هـ / 1973م، ج1 ص341.
- 10- ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1412، ج3، ص1128.
- 11- أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي التادلي: الحماسة المغربية، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، 1991، ص79.
- 12- محمد بن أبي بكر الأنصاري التلمساني المعروف بالبري: الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، دار الرفاعي، الرياض، 1403، ص308.
- 13- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1965، ج2 ص104.
- 14- شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1424هـ / 2004م، ج20 ص132.
- 15- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: هملوتريتر، دار النشر فرانز ستانير، ألمانيا، 1381هـ / 1962م، ج6 ص113.
- 16- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير: تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1408هـ / 1988م، ج9 ص65.
- 17- شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي: فتح المغيث شرح ألفية الحديث، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، 1403هـ، ج3 ص135.
- 18- عبد القادر البغدادي، خزائن الأدب بلبل بالسان العرب، تحقيق محمد نبيل طريفيو إمبلدي يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ج5 ص343.
- 19- شمس الدين أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي: لوايح الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرر المضوية في عقد الفرقة المرضية، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق، الطبعة الثانية - 1402هـ / 1982م، ج2 ص350.

- 20-عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية، القاهرة، 1379 هـ، ج 2 ص 8.
- 21-مصطفى بن سعد السيوطي الرحيباني: مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الأولى، 1961م، ج 18 ص 355.
- 22-محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1415 هـ / 1995 م، ج 3 ص 126.